فئران

أحمد يونس

البلد تحكمه مجموعة من اللصوص والشعب قطيع من البهائم (عايز الحرق) ولا أمل في انصلاح حال تلك البلاد.

***

obeikan.com

الصلاة خيرٌ من النوم.. الصلاة خيرٌ من النوم..
أيقظه صوت المؤذن من سبات عميق على مثانة ممتلئة وصداع عنيف.
استغرق ثواني حتى يفهم ما حوله.. بصعوبة يقوم من على السرير..
خطوات ثقيلة ساقته إلى حيث يتوضأ.
وفي رأسه فكرة واحدة.. متى العودة إلى السرير؟
أحداث أمس تنقشع عنها الغشاوة مرة واحدة ليراها ماثلة أمامه فيتجرع مرارتها من جديد.. صراع متواصل ممتد في كل لحظة ومع كل شيء.. يصارع الناس بجهلهم وفسادهم وتقاليدهم البالية.. يصارع النظام الدراسي البالي الذي لا يفيده إلا النزر اليسير إن أفاده.. الوحدة التي تحول بينه وبين سكن يسكن إليه.. حتى نفسه يجاهدها ليدفعها عن شهواتها.
ينزل إلى الصلاة، ورويدًا رويدًا يزول عنه كسله ولا يزول عنه همه.. وصلاة الفجر هي أقرب الصلوات جميعًا إلى قلبه.. الكل نيام وهو وحيد ذهابًا وإيابًا.. آه لو يظل الناس نيامًا ويبقى ذاك الفجر إلى الأبد.. لن تتوقف الدنيا على أي حال، بل ستكون مكانًا أكثر ملاءمة للحياة.. وماذا فعل الناس في صحوهم أكثر من تناول الطعام وإحداث الضوضاء؟!
يؤدي الصلاة مع عدد قليل للغاية من المصلين لا يتجاوز الصفين، أغلبهم جاوز الستين، على الرغم من أنه أكثر مساجد المنطقة ازدحامًا.
انقضت الصلاة وعاد إلى البيت وقد زال عنه كسله تمامًا وبقي همه كما هو.. يقرأ ورد الفجر من القرآن ثم يتناول كتابًا يصعد به إلى الدور العلوي ليذاكر حتى ميعاد الكلية.
نسيم الصباح يضرب وجهه في رفق محاولًا ملاطفته فيتبسم في سعادة.. هذه الساعة أحب الساعات إلى قلبه، وهي الساعة التي تمده بالأمل

لنفس طال حرمانها وبالنشاط لجسد طال إنهاكه.
ظل يذاكر في إخلاص حتى غمر النور المكان وبدأت الدنيا حوله تستيقظ.. أحس بصوت بوابة البيت الذي يليهم تنفتح ثم سعال طويل يختتم ببصقة.. آه.. ها هو الفأر العجوز يخرج من جحره ليفتتح يوما جديدا في حياة هذا الشارع.
أطل من السور فطالع الرجل يمشي بخطوات ضيقها الزمن.. بجلباب يحفل بشتى أنواع البقع وهو يحمل قفصًا من الجريد ليحمل عليه طعام إفطاره.
الحاج سعيد.. أكبر قاطني هذا الشارع سنًّا وأكثرهم بؤسًا وشقاءً.. كيف أحالك الزمن إلى ذلك الحال يا حاج سعيد؟! تردد هذا السؤال في ذهنه دون أدنى شفقة وفي ذهنه أيضا برقت ذكرياته مع هذا الكهل.
كان الرجل موظفًا بإحدى المصالح الحكومية.. لم يكن موظفًا كبيرًا ولا صغيرًا، لكنه كان ميسور الحال على نحوٍ ما.
كان الرجل نظيف اليد كذلك، بل ويؤدي الفرائض جميعها بانتظام.. لكن الطامة الكبرى أنه كان يقف عند ذلك وينظر إلى نفسه بعين الرضا.
كانت حياته قصة تقليدية مملة: شباب صاخب وورقة تحمل المؤهل العالي.. زواج صالونات.. أطفال كانوا يكبرون بينما هو في طريقه إلى الهِرم.. وحياة تضطرب بين الحلو والمر والوصال والجفاء.. وأخيرًا تموت الزوجة وتتزوج البنات والولد ليبقى ذاك الكهل البائس.
جمعته مناسبات متفرقة مع الرجل، وفي كل مرة يزيد امتعاضه من الرجل وبغضه لواقعه.
كان أحيانا يحدثه عن نظافة يده ويقسم إنه لم يُدخل بيته قرشًا حرامًا ثم يعرج إلى زملائه المرتشين وكيف يمحق الله البركة من أرزاقهم الحرام..

وكان كاذبًا فيما يقول.. كان نظيف اليد لكنه كان كسولًا بليدًا وعبدًا لرؤسائه.. كان يحرص على مصلحة العمل والأوراق ولتذهب مصالح البشر إلى الجحيم.. كان أيضا ممن يحبون (المشي جنب الحيط)، فكان لا يجد حرجًا أن يغض الطرف عن رائحة الأموال النتنة التي يتقاضاها من هُم أكبر منه أو حتى أقرانه. هل كان صادقًا إذًا حين قال إنه لم يُدخل قرشًا حرامًا بيته؟!

في أحيان أخرى كان يتكلم في السياسة.. يتكلم بلهجة الخبير العالم ببواطن الأمور على الرغم من أن آراءه هي تكرار أحمق لما سمعه من جلسائه في جلسات سابقة أو بعض وسائل الإعلام مصادفة على أفضل الأحوال.

قبل الثورة كان الرجل يحب التبرم والتشكي والتهويل والتثبيط، ويغلف ذلك جميعه بطبقة سميكة من السلبية واللامبالاة.

يومًا قال ملخصًا وجهة نظره: (البلد تحكمه مجموعة من اللصوص والشعب قطيع من البهائم (عايز الحرق) ولا أمل في انصلاح حال تلك البلاد).

ويقول في سره: (وأنت أولهم).

فإذا دارت رحى الحديث عن السياسة الخارجية أكمل تحليله السطحي بقوله: (وهذه هي الحسنة الوحيدة للحكومة، تعرف كيف تسيِّر أمورها بين الأمم، لم تنزلق أقدامها في حرب، تحصل على المعونة بانتظام، علاقتها جيدة مع الجميع، أنت لا تعرف معنى الحرب يا ولدي، هذا البلد لن يحتمل حربًا أخرى. وماذا جنينا من الحروب؟ وماذا قدموا لنا مقابل ما قدمناه؟ فليعن كل بما له وليقدم الله ما فيه الخير).

تذكَّر قصة الأسد والثيران الثلاثة.. كان يتصور أن الثيران فقط هي التي

يمكن أن تنظر تلك النظرة الضيقة للأمور، لكن الله أحياه حتى رأى ثورًا يتكلم ويفكر.

بعد الثورة، ازدهرت سوق السياسة.. وازداد نعيق الحاج سعيد بها. وتغيرت أشياء كثيرة بعد الثورة، لكن عم سعيد ظل كما هو شكَّاء بكَّاء.. لا يعجبه أي من التيارات ولا ينتمي لأي من التيارات.. إنما هي انتقادات وشتائم تلقى هنا وهناك لا أكثر.

كان لا يحب ولا يتقن في حياته إلا شيئًا واحدًا: مشاهدة الكرة.

كانت أحب الأوقات إلى قلبه حين يتابع المباريات.. وكانت انتصارات فريقه أو هزائمه هي الوحيدة القادرة على إثارة الفرح أو البؤس في هذا القلب الفارغ. كانت أحلامه ببطولات فريقه تفوق طموحاته لنفسه في العمل والحياة، وكانت فرحته بصفقة يبرمها الفريق أحب إليه من فرحته بنجاح إحدى بناته في الدراسة.

هكذا عاش الرجل وهكذا هو ينتظر الموت في شقاء.. غريبًا، حتى وهو في الديار التي احتوته طوال سنوات عمره.

كان أخوف ما يخافه الفتى أن تنقضي حياته كما انقضت حياة هذا الكهل.. عاش فأرًا وسيموت فأرًا بلا زيادة أو نقصان.

وحانت منه نظرة تجاه البيوت المتراصة وفكر قليلًا في قاطنيها.. إنهم لا يختلفون كثيراً عن الحاج سعيد، لكن الحاج سعيد هو الطور النهائي لمن سيبقى منهم دون أن تدهسه عجلات قطار الحياة.

الشباب كثيرون في الحي وكلهم يحيا حياة صاخبة وكلهم يحمل ورقة المؤهل العالي أو سيحملها.

وقد عرف بعض المتزوجين حديثًا وكلهم تزوج زواج صالونات.

الأزواج يسعون إلى الهِرم بينما يشب أبناؤهم.

بعضهم قارب المعاش أو تجاوزه، وهؤلاء مشغولون بزواج أبنائهم.
ثم أخيرًا.. الحاج سعيد.
أشرقت الشمس بكامل قرصها وآذنت بالرحيل.. وحانت منه نظرة أخيرة تجاه الشارع وعاودته تلك الرغبة بأن يبقى الفجر أبدًا وأن يبقى هؤلاء جميعًا نيامًا حتى مماتهم.

obeikan.com